Semat
An International Journal

Semiotics pronoun "I"
In Numerology and building interpretation

Bensayah Lakhdar

Arabic Language Department ,University Ammar Telidji, Laghouat, Algeria
Email: lakhdarbensayah@gmail.com

Received: 16 Sep. 2013; Revised: 9 Oct.-20 Nov. 2013; Accepted: 20 Dec. 2013
Published online: 1 Jan 2014

Abstract: Has characters and words semantic identity embodies the feelings and ideas and behaviors prior to her memory by employing them in the text, word form and sound sections contribute to the meaning-making and created by images touch the other, attract us to unless it touches words. The word letters are completed past and still life consists in the womb of writing.

Words always charged vital significance gravitate towards verification in the future.

The meanings posed by the words help significance to leave her body to unite in the other, or in other cosmic objects.

If the identity of letters in the words of Ibn al-Arabi, we have adopted the speaker on the conscience of the "I" and we read this conscience, focusing on what it is and attributes, and show markers Semiotics allow the building interpretation

Keywords: Semiotics, I, Semantics, Code, Icon, Context, Brand, Interpretation, Structure, reference, Formation, AZ.

Semat
An International Journal

سيميائية الضمير "أنا"
في الدلالات وبناء التأويل

ابن السائح الأخضر / الجزائر

الملخص: تمتلك الحروف والألفاظ هويّة دلالية تجسّد أحاسيس وأفكارا وسلوكات مسبّقة ومحايثة لذاكرتها قبل توظيفها في النص، فالكلمة بشكلها ومقاطعها الصوتية تساهم في صنع المعنى وتخلقه صورا تنبش أخرى، وتشدّنا إلى مالم تلامسه الكلمات. فالكلمة بحروفها هي ماض مكتمل وحياة مازالت تتخلّق في رحم الكتابة. فالألفاظ مشحونة دوما بدلالات حيوية تتجذب نحو التحقق في المستقبل، من منظور أن المعاني التي تطرحه الألفاظ تساعد الدلالة على مغادرة جسدها لتتوحّد في الآخر أو في الأشياء الكونية الأخرى.

وإذا كانت الحروف ذواتا حسب تعبير ابن عربي، فقد اعتمدنا على ضمير المتكلّم "أنا" وقدّمنا قراءة لهذا الضمير مركّزين على ماهيته وصفاته، وإظهارها كعلامات سيميائية تسمح ببناء التأويل.

الكلمات المفتاحية: سيميائية، الضمير أنا، الرمز، الأيقونة، البنية، ترجمة، مرجعية، تكوين.

سيميائية الضمير "أنا"
في الدلالات وبناء التأويل

ابن السائح الأخضر / الجزائر

هوية الكلمة:

تمتلك الحروف والألفاظ هويّة دلالية تجسّد أحاسيس وأفكارا وسلوكات مسبّقة ومحايثة لذاكرتها قبل توظيفها في النص، فالكلمة بشكلها ومقاطعها الصوتية تساهم في صنع المعنى وتخلقه صورا تنبش أخرى، وتشدّنا إلى مالم تلامسه الكلمات. فالكلمة بحروفها هي ماض مكتمل، وحياة مازالت تتخلّق في رحم الكتابة. فالألفاظ مشحونة دوما بدلالات حيوية تتجذب نحو التحقق في المستقبل، من منظور أن المعاني التي تطرحها الألفاظ تساعد الدلالة على مغادرة جسدها لتتوحّد في الآخر، أو في الأشياء الكونية الأخرى.

وإذا كانت الحروف ذواتا – حسب تعبير ابن عربي – فقد اعتمدنا على ضمير المتكلّم "أنا" وقدّمنا قراءة لهذا الضمير مركّزين على ماهيته وصفاته، وإظهارها كعلامات سيميائية تسمح ببناء التأويل.

وحاولنا في هذه القراءة ضرورة الإفراج عن الخيال، والإنصات إلى الذات وإلى الضمير المعبّر عنها من خلال العلاقة بين الحرف خطًا، والمعنى من جهة، وبين الشكل والمحتوى. كما كنا نبحث عن ترحال الحروف ومتاهاتها في الأجساد والهويات.

ولا أدّعي أنّني قدّمت كل ما يجب تقديمه، وتبقى هذه الدراسة استمرارًا لفيض سابق والنهاية اتصالا بفيض آت.

إن اللفظ وعاء يحتوي المعنى دلالة وإشارة، ويؤسّس على أنقاضه معان عدة، تمثّل في النهاية شكلا لغويا موازيا للمقصود، انطلاقا من لفظه الرئيس الذي يختزن هذه المعاني، ويمدّها بمشروعية التوالد، حيث تنفجر اللفظة بطاقتها الترميزية الفاعلة والمتحرّرة حين يتمحور حولها المعنى أو يرتبط بإحدى قرائنها، فاللفظ إناء يستوعب المعنى وباقي مكوّناته الأخرى، كما ينطوي على دلالة في حاجة إلى تحويل أو تأويل حسب حركية اللفظ في النص، وسياقه ووضعه

اللغوي، فاللفظ أو الكلمة حين تدخل في بناء النص تكتسب موقعها من حركتها وسياقها الذي يفرضه النص.

فالدلالة لا يتوقّف حضورها على المستوى الحسّي للكلمة، وإنّما تحفر لنفسها مسارات تتجاوز بها وعاء اللفظة إلى فضاء أرحب وأوسع.

فالمعنى أو الدلالة هي شهوة تحفر في الكلمة بحثا عن موقع أو إقامة مؤقّتة، وقد تتحرّر من موقعها حين تجد الفرصة سانحة في تجاوز دلالتها المقيّدة بقيود اللفظة لتنفجر بطاقتها المقموعة شظايا مختلفة من الدلالات والرؤى إذا وجدت حيزًا يحتضن عمليات تفاعلها، حين تخرج من التسمية وتدخل في الترميز لتفتح أفقا جديدا وتدخل في السياق التداولي للاستعمال اللغوي الجديد. "اللّغة خصائص وأدوار من أهمها الإخبار عن القصد وإيصال الحالة التي يودّ نقلها والتعبير عنها، وتقوم الكلمة الدال (الدال) بهذه المهمّة لارتباطها بالمعنى الوضعي – المعجمي – الصحيح نحويا ومنطقيا، والمتعارف عليه بالتداول الجماعي.....

وتقوم هذه الكلمة بالبثّ المباشر لمعناها الصريح من سطوح النص إلى ذهن القارئ، إلاّ أن الكلمة في الخطاب الأدبي، وفي الشعر خاصة تصاب بالانفصام وجودا ودلالة حيث يكون لها وجودان: الأوّل في سطح النص والثاني في دواخله، أو دلالتان: الأولى أمامية حسيّة مباشرة تلتقطها حاسّة النظر، والثانية ضمنية غائبة، يبحث عنها القارئ بالحدس والتأويل..."[1] فالمعاني والدلالات تقوم بعملية التلقين والتعبئة بمعناها الآلي للألفاظ التي تحتويها مبنى ومعنى، شكلا ومضمونا.

فالألفاظ لم تأت إلى اللغة بطريقة اعتباطية وإنّما ترتبط بمرجعيتها الثقافية والحضارية التي أنتجتها وفق نظام معيّن في تركيبة الأمّة التي تنتسب إليها اللغة.

فاللفظة مهما كانت محدودة الشكل محدودة الحروف، فهي هويّة علامات تحمل من العتبات ما يسمح ببناء التأويل.

والمتأمّل للغة العربية بمعجمها يجدها حاضرة في تشكيلها وبنائها على عمق دلالتها المعانقة لها، والكامنة في أحشائها، فالمعنى يستنجد بشكل لفظه الذي يحتويه ويستغيث به؛ لأنّ المعنى يتخلّق داخل اللفظة فتحبل به مضغه فعلقة فجنينا، وتبقى اللفظة الوعاء حبلى بالتحولات الجذرية الخاضعة لسلطة الكتابة، وإرادة الذات البدعة وتوقعات القارئ.

فالمعنى حين يدخل خلف إشارات الألفاظ وتأويلاتها يكتسب عبق المعنى القديم والمعنى الجديد المختلف باختلاف موقع اللفظة في النص، حيث تخضع اللفظة إلى متابعة الدلالات وتحريكها، فالكلمة تتجاوز المعنى الذي يقدّمه تراث الماضي لها، وتكتسب معاني جديدة معبّأة بتلك الأصداء الفكرية التي تفرضها مستجدّات العصر، من هنا نلمس توالد المعاني واستمرارها وتجدّدها.

إنّ حيويّة الكلمة نابع من استعمالها المتعدّد والمختلف، وما حروفها ومقاطعها الصوتية إلاّ بنيات صغرى مؤثّثة لدلالاتها على شكل قطع فسيفسائية تساهم في خلق تنوع المعنى وحركيته في النص.

من هذه الحركية المتصلة بمرجعيتها الثقافية والحضارية على مستوى البناء والدلالة. وفي هذا السياق، نستدلّ بضمير المتكلّم "أنا" ونتوقّف عند مختلف العناصر والمكونات التي ترسم هذا "الضمير" شكله، طبيعته، كما نرسم أفق المتخيّل وخصوصيته الفكرية في جعل هذا الضمير على الصورة التي نعرفها.

[1]. أسيمة درويش، مسار التحوّلات، قراءة في شعر آدونيس ط الأولى 1992، دار الآداب، ص 228.

"فألف المدّ التي ينتهي بها الضمير "أنا" يترافق نطقها مع رفع الرأس المصاحب لحسّ الشموخ الذي يملأ وجدان الإنسان العربي الأوّل الذي أنتج اللغة، ويتماشى مع رغبته في الاستعلاء على الآخر الذي ينتهي ضميره المخاطب بالتاء المكتومة التي لابدّ من تحريكها ليظهر صوتها، فاستتبعت بالفتحة التي تساوي نصف ألف في "أنت" مما يعني إبقاء الآخر في حالة أدنى من حالة الأنا، فالأنا الذي يستعمل اللغة التي أنتجها، يستكثر على الآخر "الأنت" مدّا صوتيا كاملا، فيجود عليه بمجرّد فتحة أو بنصف صوت الألف، وربما ربعها ويبلغ الاستعلاء أضعافه عند مخاطبة الأخرى التي تتضاعف آخريّتها لأنها آخر ومن جنس آخر، فينتهي ضميرها " أنت" بتاء مكتومة"[2].

والملاحظ أن كتابة السمات والملامح لضمير المتكلّم "أنا" الماثل أمام العين مازالت محتفظة بجلالها وعنفوانها وزهوها واستعلائها على الغير.

إنّ الوجود المادي لصورة الضمير على الوجه الذي نشاهده، فيه سرد لتاريخ الأمّة وثقافتها وذاكرتها التي تتوارى بعيدا، إنّها في محصّلة القول فكر الأمّة وعقليتها، ومظهر من مظاهر تجلياتها الذي تحكي فيه صورتها وصورة الآخر "فمن حرارة التجربة وصدق المعاناة تتشكّل اللّغة التي تصل القلب بالقلب"[3].

يمتاز الضمير "أنا" من الناحية السيميائية بعلاقة ارتباطيه عضوية مع الذات المتكلّمة الفاعلة والمنتجة للفعل، مشكلا بنية كبرى تتألّف من محورين أساسيين في العملية التخاطبية / أنا/ الذات المتكلّمة، والآخر الذي يأتي في درجة تراتبية أقل من الذات مصدر الخطاب.

ولعلّ وظيفة "الضمير أنا" تتداخل مع الوظيفة الإيحائية التي تشير إلى المحتوى كقطب يمثّل نواة دلالية رئيسة متعالية بعلو ألف المدّ "**أنـ(ا)**"، فشكل الضمير يحيل إلى صاحبه كذات موازية لهذا الألف الواقف والمعانق للسماء.

يقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي....

وأسمعت كلماتي من به صمم

فالضمير يعلن عن صاحبه، وتستند إليه الذات المتكلّمة، لتشكّل في مجموعها ظاهرة إشارية للرفعة والعلوّ والغلبة والبقاء.

فالضمير يحفظ لنفسه ذلك المسار التصاعدي داخل السلسلة الدالة في البيت، من خلال الإيحاء والترميز الذي يتعالق مع سياق النص اللغوي في المعنى أو الدلالة النحوية. هذا المثل يذكّرنا ببيت شبيه للحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه:

أنا ابن جلّى وطلاّع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني

البعد الدلالي للضمير "أنا" يلغي الآخر أو ينزل من قيمته، ويجعله في موقع المتلقي المستسلم والمؤمن بما يصله، وكأنّ الظلال الخفية للآخر تختفي مع وجود ضمير المتكلّم الذي يكبرها شكلا ومضمونا ومكانة وموقعا؛ لأن بؤرة الإبلاغ متعالية.

فألف ضمير المتكلّم هو الصفة الأيقونية للذات المتكلمة، والمشابهة مع الموضوع في التعبير والمحتوى؛ لأنّ "ألف المد" أصبحت علامة تمتلك نفس خصائص الموضوع الممثّل، وحين نبحث عن أصول تشكيل هذا الضمير "أنا" والبحث عن صفاته وأوضاعه وإيماءاته، نجده ينطبق على الذات المتكلمة والفاعلة التي تمتلك قدرة عجيبة وخارقة في توجيه الرأي العام، لعله الإنسان الكامل أو الأعلى، ومن هنا كان ضمير المتكلّم هو الأعلى بألفه، ويبقى ضمير المتكلم في اللغة العربية أعلى من بقية الضمائر الأخرى

[2]. حسن العباس، الحرف العربي والشخصية العربية، دار أستانة، دمشق، ط1 1992، ص134/135.

[3]. عبدالقادر الغزالي "الصورة الشعرية وأسئلة الذات" – قراءة في شعر حسن نجمي، دار الثقافة، مؤسسة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1 2004، ص 159.

شكلا ومحتوى، وكيف لا وهو الفاعل والمؤثّر والمعانق للسماء، فطاقته كامنة في الإنسان صاحب الأمر والنهي، وإرادة الفعل، من منظور أن "تشكيل الذات يبدأ من مناقشة الأعراف الموجودة حولها، وهذه الأعراف طقوس لغوية لها هيمنة اجتماعية"[4].

ولو عدنا بالذاكرة إلى الوراء، وبحثنا في تخوم الثقافة العربية وجذورها لتمثّل لنا مشهدا حسّيا ماثلا للعيان، حين نجد زعيم القبيلة، أو أحد حكمائها، أو قادتها يختار المكان العالي في توجيه خطبته إلى قومه أو تقديم النصح لهم، نذكر على سبيل المثال لا الحصر هاشم بن عبد مناف حين يخطب في النّاس يلتجئ إلى رابية أو مكان مرتفع وهو ملّثم بعمامته ومتّكئ على عصاه حين يريد توجيه دعوة أو أمر أو نهي إلى عشيرته أو قبيلته، وهذا دأب الخطيب الذي يستحسن المكان المرتفع وبقيّة الجمهور في موقع أقل، وكأن اللغة العربية بمرجعيتها الثقافية أرادت لهذا الضمير أن يعكس هذا الوجود المتعالي وكيف لا وهو الآمر الناهي.

"إنّ اللغة رغبة في الاستحواذ، فيض ينطلق من وجود الذات لينعكس منها على العالم، فتحقّق أحلامها في مفرداتها المنتقاة التي أخرجت رغباتها من حالة الكبت إلى حالة الإعلان، فالاسم الذي نطلقه على ما نظن أننا نمتلكه، يحقق لنا هذا الامتلاك عبر طقوس الترديد والتداول"[5].

من هنا نتحسّس موقع "**ضمير المتكلّم**" على خارطة الوجود العربي بأبعاده الاجتماعية والإنسانية والسياسية والتكوينيّة الجسدية والموروث التاريخي والأعراف المحيطة به، على أنه أكبر الضمائر منزلة وأعلى شأنا وأفضل قدرة، كما يوجّه نظرنا إلى المكانة الجديدة بالتبجيل على أساس قانون التفاضل بين الأنا والآخر، هذا الآخر الذي يبقى أقلّ شأنا مهما أوتي من قوّة؛ لأنّ ثقافة الأمّة فكريا واجتماعيا هي التي تحفر في تكويننا، على أن يبقى ضمير "الأنا" مستقلا ومتميّزا داخل الجماعة، والحقيقة أن الذات الفردية لا تمتلك طاقتها إلاّ من هذا الآخر الذي يمكّنها من رؤية نفسها، واستقراء جوهرها.

ويجري الكلام على التراث ككل، وهو يمثّل الأنا ويبجّلها، هذه الأنا التي تبطش وتستحوذ، وهي صاحبة الحوار والرفض والمساءلة، والمكانة العليا في المجتمع، أمّا الآخر فيبقى آخرا مستمعا، لا يملك من الفعل إلاّ التلقي والتسليم والقبول.

وتهطل علينا هذه الخواطر كسيل من المطر المفاجئ لا يستجمع،ونحن نتفحّص هذه الكلمة الدال "أنا" ونطلقها من أسرها لتمدّنا بمدلولات لا نهائية تعكس عملية البناء اللغوي لهذا الضمير "أنا".

إنّ اكتشاف الذات من خلال ألف المدّ يخرجنا من دائرة الوعي الذاتي إلى مدار الوعي الجماعي الذي جعل هذه الألف تزداد قوّة وصلابة وثباتا، وكأنّه ردّ فعل غريزي يصدر من الذات المتكلّمة أن تبقى هي السائدة والمهيمنة، فارتفاعها وصعودها يطلقه اللاشعور كشحنة قويّة جاذبة لمداراتها عوالم الرؤيا والاستكشاف،لأنها مشحونة بقوّة إيحائية كرمز فاعل، وتستدرج الآخر إلى الإذعان والتسليم.

ولو أردنا استنطاق الواقع، بدءا بمؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مرورا بموروثه الثقافي والحضاري، وانتهاء ببنيته الفكرية والثقافية لوجدنا الهالة التي يمتلكها ضمير المتكلّم "كواحد أوحد" بدون رقيب أو شريك، وحتى ولو استجوبنا الموروث، لشعرنا بمعصومية ضمير المتكلّم ووحدته الدلالية كمؤشّر على البقاء والصمود والفعالية والاستئثار على بقيّة الضمائر الأخرى.

---

4. مجموعة من المؤلفين، في أدب المرأة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان، ط 1 ن 200 – دار نوبا للطباعة، القاهرة/ ص37.
5. نفس المرجع السابق ص 64.

إنّ الذات المتكلّمة حين يتحوّل النزوع عندها إلى التوحّد بضمير المتكلّم "أنا"، يتحوّل هذا النزوع إلى باعث لليقين، فيشحن عزمها ويمدّها بطاقة الاستمرار والقدرة على المضي، حتىّ وإن كان على حساب الآخرين.

إن الحضور المذهل للفاعلية القصوى للضمير "أنا" يحوّل المخاطب إلى الهشاشة والضعف، وهذا ما نلمسه في (أنت، أنتِ).

يدخل المخاطب "أنت" إلى اللغة دخولا خافتا ضعيفا بوصفه عنصرا مشلولا ألغيت فاعليته أمام حضرة "أنا" كحالة من الوجود الفاعل المولد المغيّر، ويزداد السلّم نزولا أمام المخاطب المؤنث "أنت". هذا الضمير يوحي بالإشارة إلى النزول من خلال تلك الأصوات المكتومة التي تهبط إلى درجة أقل.

إنّ الاستحضار القصدي لهذه التاء مع خفضها، ينبئ إلى واقع المرأة المستلب في ثقافتنا العربية التي شاءت أن تجعل المؤنث أقلّ حضوة ومكانة، من خلال الإلقاء المتعمّد لهذا الضمير في نظمه وتشكيلته، وهذا يقودنا إلى عبارة وردت على لسان الكاتبة أحلام مستغانمي معلّقة على هذا الضمير "أنت" تقول فيه: "أنت... أنثى عباءتها كلمات لا تقي حتى ركبتي الأسئلة"[6].

إن الكلمة كدال ومدلول تستحضر دلالتها الخلفية والمخزّنة في الوعي الجماعي للكلمة، وتتحوّل إلى إشارة تعمل على إثارة شيء خارج ذاتها وموجود في ذاكرة القارئ وخياله.

أضف إلى ذلك أن الدلالة الضمنية هي عماد الأدب وأصله؛ لأنها تنتقل بالقارئ من المعنى الصريح والثابت إلى المعنى الباطن المخزّن في وعي الكلمة، كإشارة تبعث معنى جديدا في ذاكرة المتلقي حيث تلد فيضا من الدلالات القادرة على التلوّن والحركة.

وضرورة لاستكمال الرؤية ودعم التحليل، تحضرني مقولة للجرجاني يقول فيها: "الألفاظ أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها"[7]، فاللفظ وسيلة والمعنى غاية واللفظ هو الذي يخضع للمعنى لكي يحمله ويؤدّيه على الصورة التي يرتضيها المعنى ويقبلها، وإذا كان "العلم بمواقع المعاني في النص، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[8]؛ لذا كان للألفاظ ذاكرة وحيّز وجداني لاشتغالها والعمل بها، ونعود إلى الضمير "أنا" ونتابع علاماته ورموزه وصوره، ونتمّثل تكوينه وإنتاجه للمعنى، ولذّة تشكيله على الطريقة الماثلة أمامنا. وحين نستقرئ العلامات والمؤشّرات نجد الوقوف والتعالي، وهو يعبّر عن طور وجودي تشكلّت في حضنه هوية ضمير المتكلّم "أنا" الذي يبدأ بألف مقرونة بهمزة، والهمزة لم تضبطها قواعد اللغة، وعلماء اللغة الأوائل لم يضبطوا لها موقعا قارا، فأحيانا يتركونها واقفة، وأحيانا يجلسونها على كرسي، وأحيانا يبطحونها أرضا لأن الأنثى لا تملك هويّة بذاتها فتبقى تابعة لغيرها.

حين أرجع الآن بذاكرتي إلى الوراء، أتذكّر قول المعلم في درس الإملاء أن الهمزة لاتكتب بين ألفين، مثل بناء؛ لأن في شريعتنا كما يقول المدّرس لا تنسب المرأة إلا لرجل واحد. فالألف رجل من حيث التذكير والهمزة أنثى. تعتريك الدهشة وتتساءل، هل للحروف هويّة خاصّة ومميّزة، وهل نشأ هذا الوعي بهوية الحروف عند وقوعها أو تبلور فيما بعد.

ولعلنا حين نعود إلى الأصول العرقية والجغرافية لطبيعة هذا الضمير والبيئة التي نشأ فيها حيث الانتماء إلى الصحراء بلاد النخيّل والرمال، والرجل المتأبط رمحه الواقف بلا انحناء، واختيار الخطيب للمكان المرتفع مرتكزا على عصاه في استقامة معهودة، ونسترجع بعض المشاهد والوقفات لكثير من الزعماء وقادة

[6]. ينظر، أحلام مستغانمي: "فوضى الحواس" دار الآداب، بيروت، ط05، 1998.

[7]. منذر عياشي "الكتابة الثانية وفاتحة المتعة"، المركز الثقافي العربي، بيروت ،ط1 1988، ص151.

[8]. نفس المرجع السابق ص151.

القبائل، نقتنع بهوية معالم الألف والحضن الذي تشكّل فيه. فألف ضمير المتكلّم نذر حياته لصالح الصمود والدفاع والغلبة والبقاء والتملّك، كما أن هذا الضمير يؤطّر الأفعال ويدفع بها إلى الحركة.

ولو تأمّلنا "ألف المدّ" لوجدنا تلك الفعالية والديمومة والقدرة على الإنجاز في حالة صمود، كاتب، قادر.. وهناك تقارب على المستوى الصوتي والمعجمي والتداولي لطبيعة الأسماء أو الأفعال التي يلجها حرف المد.. الألف الذي يشير إلى الفاعلية.

فحين نقول مثلا الأدب النسوي، أو الأدب النسائي أيّهما أصح. النسوي مع وجود الكسرة يشير إلى المرأة حين كانت مستلبة على جميع الأصعدة، وفيها الرهافة والضعف والهشاشة ما جعلها على ذلك الشكل، والكلمة صحيحة حين كانت المرأة مهّمشة لا تخرج عن دائرة الحريم، ولكن حين تحوّلت المرأة وأصبحت ذاتا فاعلة منتجة للفعل وليس موضوعا منظورا إليها، تحولت الكلمة إلى الصيغة التالية أدب نسائي.

فدلالة الألف شعلة تؤشّر على الفعل والإنجاز والقدرة، وقد وردت في القرآن الكريم "سورة النساء" هذه السورة التي تتكلّم عن دور المرأة الإيجابي إلى جانب الرجل، وأشارت إلى جميع حقوقها كذات فاعلة منتجة تتمتّع بجميع المؤهلات إلى جانب الرجل.

وعلى مدار النص القرآني في سورة النساء وردت هذه الكلمة بألف مدّ طويلة "النساء" إشارة إلى هذه الفاعلية بدون إلغاء أو مصادرة مثل قوله تعالى في الآية الرابعة: "﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾"[9].

حين نتأمّل هذه الألف كعلامة وكأيقونة نجدها تجسّد ظاهرة الفعل الإيجابي المتنامي والمفتوح في عمارة هذا الكون واستخلاف الله فيها إلى جانب الرجل، فالألف متجه الرأس إلى أعلى عكس نسوي التي نجدها في سورة يوسف عليه السلام، قال تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَافِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾"[10].

فالكسرة تنفي حضور الإيجاب إلى السلبية والدونية والتصغير كعمل مشين مخلّ بالحياء، فألغيت الفاعلية الحركية للألف وحلّت محلّها الكسرة كمؤشّر على الضعف والنزول إلى ما هو أسفل هبوطا لا صعودا وإسفافا لا تكريما، هذا ما نلمسه في الآية الموالية من نفس السورة "﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[11].

وحين نغوص في ذاكرة الملفوظ "نسوي" والسياق الذي ورد فيه، نجده يشي بالخطيئة والضعف، كما يندرج في دائرة العمل السلبي، فالكسرة علامة محورية في صياغة المعنى المراد، مثل ما نجد الألف علامة غير اعتباطية دخلت في تشكيل الكلمة وفي نظامها السيميائي الذي لا تنتجه القراءة المعجمية أو التركيبية أو الصرفية.

فالألف خطًا أو رسمًا يتّجه إلى الأعلى رغبة في السموّ، وحين اتصل هذا الألف بضمير المتكلّم "أنا" فكأن هذه الألف رغم سموّها وتصاعدها تملك قابلية احتضان "الغير" والترحيب به وباستيعابه، الهمزة، الألف، النون وكأن بهذا الضمير جمع بين عناصر الذكورة والأنوثة ليمثّل الكون ككلّ.

9. الآية رقم 04 من سورة النساء.

10. الآية 30 من سورة يوسف عليه السلام.

11. الآية 50 من سورة يوسف عليه السلام.

فالنون تمثّل نصف الكون[12]، والنقطة تمثل الخصب والنماء والديمومة، والألف امتداد للعلاء والبعث والتجدّد والخصوبة بفعل تدخّل عناية هذه الذات الفاعلة التي تمثّل أيقونة ممتازة تمتلك خصائص دالة على المعنى المراد مباشرة بفعل خصائصها التي تمتلكها (ا): كالوقوف والاستقامة والسموّ وكأنّ الأيقون المجسّد في الألف يحيل إلى الموضوع الذي هو الإيجابية والفاعلية على أساس علاقات المشابهة التي تتخذ في اتجاهها خطا يحمل المعنى من الحسّ إلى التجريد.

فكلمة "نساء" من حيث الصيغة الشكلية تحمل تجليات "الإيجابية" كأفق للتفاعل والفعل والفاعلية، بينما تنعكس كلمة "نسوة" بوجود كسرة كإشارة للدونية والسلبية، وقد تحمل هذه الكلمة في سياق الآية الكريمة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ المعاني المماثلة للدونية كالحقد والبغض والأنانية وكثرة المكر وانعدام الصفا والخديعة والشكّ. فوجود الألف يحيل إلى موضوعه إحالة كاملة العناصر.

إن علاقة شكل اللفظة ذات طبيعة تماثلية مع المعنى والكلمة التي تحتويها على أساس القرابة المفترضة بين الألف وبين المرأة حين تحوّلت إلى ذات فاعلة منتجة للفعل.

من هذا المنظور نعتقد أن هناك تواطؤا قويا بين الحرف وشكله، وهو مازال محمّلا بآثار وبصمات من تاريخه وذاكرته وجغرافيته.

ولو عدنا إلى زمن ولادة ضمير المتكلّم "أنا" والبدايات الأولى لتشكّله والتجارب المبّكرة لولادته، لعرفنا ذلك الاسترسال والتصاعد للألف الممدودة، بدليل وجود طبيعة هذا الضمير متماثلة مع الخطيب الواقف في مكان مرتفع، ونزعة القوّة والتمّلك، بحيث إن الأشكال والألوان تنتجها الحواس.

ولو حاولنا إزالة اللّثام عن وجه هذا الضمير لوجدناه متجليا، يحمل قيم الذات وقيم الموضوع داخل وحدة الشكل في أثناء تشريحنا لأفضية الألف والبحث عن أنماطه المهيمنة نجدها (ا)، (و)، (ي)، على مستوى المحور الاستبدالي ذي البعد الأفقي أو العمودي.

ففضاءات الألف من حيث السعة والهندسة والوظيفة والقيمة الإيحائية (ا)، (و)، (ي)، وهذه الفضاءات تتأطّر داخل حيّز (ا). وتتوّزع بدورها إلى ثلاثة مجالات دلالية.

(ا)– الارتفاع والشموخ / العالي، الشاسع، القائم، الداخل، الواقف، السامي، الصاعد.

(و)– القوّة والفعالية، المفتوح المعلوم...

(ي)– الهشاشة والليّن، نبيل.. رحيم...

وحين نتأمّل (الألف) في وجوهه الظاهرة والخفيّة الماديّة والمجازية، نجده لا يخرج عن مقامات السموّ، حتى مع الأسماء، المرفأ / الميناء / الطوفان / طوّافة.

وإذا كانت حركية الألف تعد امتدادا في عالم الأشياء الفاعلة، المرتفعة أو المتعالية، فإن الألف هو فضاء معنى وفضاء هندسة تمتدّ حباله إلى جميع الأسماء والأفعال التي تحمل هذا المعنى، أو تدخل في تهيئته وتأثيثه.

والعرب حتى الآن حين تتكلّم بضمير المتكلّم "أنا" تقول "أعوذ بالله من كلمة أنا" لأن هذا الضمير يمنح الزهو ويوقظ الكوامن كأنّه ينبش رغبة الاستعلاء والتكبّر على الآخرين.

إنّ الحضور البارز للذات في ضمير المتكلّم "أنا" بوصفها ذاتا فاعلة منتجة للفعل، ومهيمنة على الآخر، ظاهرة في الصيغة الشكلية لهذا الضمير المصاحب للحركة، و"الحركة هي ماهية حضور الشخص بوصفه كائنا مؤثرا وفاعلا

[12]. ينظر "سر الحروف لابن عربي تقديم وتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث.

ومنفعلا بالمحيط"[13]، فالذات الفاعلة تعد بؤرة اللقاء بين الذوات الأخرى، فهي تمثّل الكثرة داخل الوحدة في جميع تمظهراتها، والضمير هو الحامل لهذه الدلالة، كإشارة إلى الفعل وكحاجة في التحكّم والسيادة. وقد اقترن هذا الضمير بالنون "وبالنون تنفتح الأكوان التخييلية والحركة الوجودية العميقة، وذلك ما كان المتصوّفة – وعلى رأسهم محي الدين بن عربي – قد خبروه في تأمّلهم الفريد لرمزية الحروف.

فرسم النون عبارة عن نصف دائرة ونقطة، وبإتمام الدائرة بعد إضافة نصف الدائرة الأعلى تكتمل الحركة الوجودية، إذ النقطة مركز الدائرة، وهي مركز الكون وكذالك الرجل والمرأة، جسد واحد، أي دائرة انفصل شقّاها عن بعضهما، والنزوع إلى الاتصال تبعا لذلك، هو ميل إلى الأصل والنبع الأول"[14].

وكأنّ هذا الضمير اجتمعت فيه جميع مفاصل الكون ولم يبق إلاّ نصف الدائرة الذي تمثّل بقيّة الضمائر الأخرى.

ويضيف شيخ المتصوّفة "أن الحروف أفصح الشهود لسانا وأوضحه بيانا لعظمة الخالق، ومن هنا كانت حسب رأيه أمّة من الأمم، أفرادها مخاطبون ومكلّفون، ولهم تقديس وأنس ووحشة، وأسماء من حيث هم، ومنهم القطب والإمام، وبعث فيهم رسل من جنسهم، إلى سوى ذلك من المراتب والمقامات المنتشرة بين السماء والأرض"[15].

فالحرف خطًا ومعنًى له علاقة حميمية تتشاكل مع كينونات طبيعية وتاريخية ورمزية، لذلك ظهر الألف كمعطى نراه بأعيننا، كما يتمظهر في الأشرطة اللغوية ويتجلّى كأيقون مخزن لفاعلية الكائن الإنساني.

ويبقى الألف كيانا مميّزا ومحتشدا بالكثافة الدلالية المحمّلة بأصداء فكرية يعكس نظامه اللغوي الذي أنتجه وفق الحضارة التي احتوته خطا ودلالة.

المراجع:

أسيمة درويش، مسار التحوّلات، قراءة في شعر آدونيس ط الأولى 1992، دار الآداب، ص 228.

حسن العباس، **الحرف العربي والشخصية العربية**، دار أستانة، دمشق، ط1 1992، ص134/135.

عبدالقادر الغزالي **"الصورة الشعرية وأسئلة الذات"** – قراءة في شعر حسن نجمي، دار الثقافة، مؤسسة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1 2004، ص 159.

مجموعة من المؤلفين، في أدب المرأة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان، ط 1 200 – دار نوبا للطباعة، القاهرة / ص37.

نفس المرجع السابق ص64.

ينظر، أحلام مستغانمي: **"فوضى الحواس"** دار الآداب، بيروت، ط05، 1998.

منذر عياشي **"الكتابة الثانية وفاتحة المتعة"**، المركز الثقافي العربي، بيروت ،ط1 1988، ص151.

نفس المرجع السابق ص151.

الآية رقم 04 من سورة النساء.

الآية 30 من سورة يوسف عليه السلام.

الآية 50 من سورة يوسف عليه السلام.

ينظر "سر الحروف لابن عربي تقديم وتحقيق د. عبدالحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث.

عبدالقادر الغزالي، **الصورة الشعرية وأسئلة الذات**، ص25.



13. عبدالقادر الغزالي، الصورة الشعرية وأسئلة الذات، ص25.

14. نفس المرجع السابق ص 149.

15. ينظر / ابن عربي الفتوحات المكية "المجلّد الأوّل" ص 78،58.